قال المؤلف –رحمه الله–: بسم الله الرحمــٰن الرحيم: اعلمْ –رحمكَ اللهُ– أَنَّهُ يجبُ علينَا تَعَلُّمُ أربعِ مسائلَ؛
الأُولى: العِلْمُ؛ وهوَ معرفةُ اللهِ، ومعرفةُ نبيِّهِ، ومعرفةُ دينِ الإسلامِ بالأدلةِ .
الثانيةُ: العملُ بهِ .
الثالثةُ: الدعوةُ إليهِ.
الرابعةُ:الصبرُ علَى الأَذى فيهِ.والدليلُ قولُه تعالَى: بسم الله الرحمــٰن الرحيم ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[العصر: ١–٣]، قالَ الشافعيُّ رحِمَهُ اللهُ تعالَى: لوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلاَّ هٰذه السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ .
وقال البخاريُّ رحِمَهُ اللهُ تعالى: بابٌ العلمُ قبلَ القولِ والعملِ، والدليلُ قولُه تعالَى :﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾[محمد:١٩]، فبدأَ بالعلمِ قبلَ القولِ والعملِ.

استهل المصنف – رحمه الله –كتابه هذا بالبسملة – بسم الله الرحمن الرحيم–، **والبداءة بالبسملة دل على ثبوتها ومشروعيتها أدلة كثيرة منها**

- ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:[كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أقطع]، وفي رواية: [أبتر]، وفي رواية:[أجذم]، وفي رواية:[كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله]، وهذه الأحاديث لا تخلو من مقال ولكنها بمجموعها تحتمل ولهذا تلقتها الأمة بالقبول، فصاروا يبدؤون كتبهم بالبسملة.
- أنها هدي الأنبياء السابقين، قال الله عز وجل{ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } [النمل: ٣٠]فقد كان أنبياء الله يبدؤون مكاتيبهم بالبسملة، وقد قال الله لنبيه: { أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠].
- أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبدأ بها مكاتبيه:

فعندما كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل: "بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم"، ولما النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب صلح الحديبية أملى على الكاتب " بسم الله الرحمن الرحيم "، فقال مندوب قريش سهيل بن عمرو: " ما ندري ما الرحمن ولا الرحيم ولكن أكتب باسمك اللهم " فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " فاكتب باسمك اللهم".

إذن السنة أن يبتدئ الإنسان مكاتيبه بالبسملة، والسنة أيضًا أن يبتدئ خطبه بالحمد لله، فإذا خطبت فابدأ بالحمد له، وإذا كتبت فابدأ بالبسملة ولا بأس من الجمع بينهما.

وهذه اللفظة – بسم الله الرحمن الرحيم– ابتدأت بالجار والمجرور:" بسم الله" لأن الباء حرف جر، والجار والمجرور لا بد له عند النحاة من متعلق، فكيف نقدر متعلق الجار والمجرور، قال العلماء: إن متعلَّــق "بسم" فعل محذوف مؤخر مناسب للمقام، فما هو هذا الفعل الذي ينبغي أن نقدره لكي يكون مناسبًا للمقام ها هنا؟ هو أن نقدر " بسم الله

أكتب" فأنت إذا أردت أن تَطْــعم وقلت بسم الله فما التقدير؟ بسم الله آكل، وإذا أردت أن تدخل بيتك وقلت بسم الله، فأنت تقصد بسم الله أدخل.

إذن ينبغي أن يقدر الفعل مناسبًا للمقام، ففي هذا يقدر مناسبًا للكتابة، فيكون التقدير بسم الله أكتب، أو بسم الله أصنف، بسم الله أؤلف، وبالنسبة لنا بسم الله نقرأ، وهذا الاسم اسم الله عز وجل اسم مبــارك، ما كان في شيء إلا حلت فيه البركة، فإذا استعمله الإنسان مع الطعام بورك له في زاده، وطرد عنه الشيطان، وإذا استعمله الإنسان في دخوله لبيته؛ فإن ذلك يطرد الشيطان ويمنعه من المبيت، وإذا استعمله الإنسان إذا أتى أهله حيل بين الشيطان وبين ما يقسم بينه وبين أهله من ذرية، فينبغي للمؤمن ألا يغيب عن باله، ولهذا قال الله عز وجل {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ } [الرحمن: ٧٨] ، فهذا من بركات هذا الاسم.

والاسم عند النحاة: هو ما عيّن مسماه، فالله سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى، كما قال في غير موضع {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } [الأعراف: ١٨٠] خلافًا للمعتزلة الذين أنكروا أن يكون لله أسماء، فالله تعالى له أسماء حسنى وله صفات عُلى، فنثبت ما أثبت الرب لنفسه، ومما نثبته لربنا عز وجل الاسم، وأما لفظ الجلالة " الله" فإنه أفضل الأسماء الحسنى على الإطلاق، وقيل: أنه هو الاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب، ولهذا نجد أن الأسماء الحسنى تحال إليه، ألم تروا أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر في آخر سورة الحشر جملة من الأسماء الحسنى فكان يقول {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الحشر: ٢٢، ٢٣]، فمرجع الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم الشريف وهو الله، وذلك أن الله اسم مشتق وليس اسمًا جامدًا هو اسم مشتق من : أَلَهَ يألهُ أُلوهةً، والمراد بالإلوهية: انجذاب القلب، التأله انجذاب القلب للمعبود محبة وتعظيمًا، فلهذا كان هذا الاسم الشريف جامعًا للأسماء الحسنى، لأن القلوب لا تجتمع إلا على من كانت له صفات الكمال ونعوت الجلال.

أما الرحمن و الرحيم فهما اسمان شريفان كريمان من أسماء الله الحسنى، ومعناهما متقارب إذ أن كلًا منهما يدل على اتصاف الله تعالى عز وجل بصفة الرحمة، ولا ريب أن ربنا رحيم ورحمن، وأن من صفاته العلى صفة الرحمة، ورحمة ربنا عز وجل رحمة تليق به ليست كرحمة المخلوقين فيها ضعف ورقة، بل هي رحمة لائقة بجلاله وعظمته رحمة حقيقية نثبتها لربنا ونرجو ثوابها.

الفرق بين الرحمن والرحيم:

الفرق الأول: قال بعض أهل العلم: أن الرحمن يدل على اتصاف الله تعالى بصفة الرحمة اتصافًا عامًا، أما الرحيم يدل على اتصاف الله بصفة الرحمة اتصافًا خاصًا، بمعنى أن الرحمن يدل على صفة الرحمة صفة ذاتية، والرحيم يدل على اتصاف الله بصفة الرحيم على صفة فعلية.

الفرق الثاني: أن الرحمن يدل على تعلقه بعموم المخلوقين، والرحيم يدل على اختصاصه بالمؤمنين خاصة ، وعلى أي حال فبينهما تقارب، فالرحمن يدل على الرحمة الواسعة، التي دل عليها قوله تعالى { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف: ١٥٦] ، والرحيم يدل على الرحمة الواصلة التي تختص بالمؤمنين، قال عز وجل **{وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: ٤٣]**

الفرق الثالث: أن الرحمن لا يطلق إلا على الله عز وجل ، بينما الرحيم يجوز أن يسمى به المخلوق، فالرحيم يمكن أن يقال لإنسان كريم ورحيم، لكن لا يقال رحمن إلا في حق الله تعالى، لأنها تدل على الإطلاق والكمال المطلق ، فلذلك لا تطلق إلا في حق الرحمن عز وجل.

قال: بسم الله الرحمـــن الرحيم، اعلمْ –رحمكَ اللهُ–: ابتدأ المصنف–رحمه الله– بهذا اللفظ –اعلم–، وهو صيغة أمر تحمل المخاطب على الانتباه ، وقد جرى الشيخ على نسق القرآن، فإن الله تعالى قال في كتابه: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} [محمد: ١٩] ، إذن اعلم: فعل أمر يطالب بحصول العلم، والعـــلـــم: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا، **وإن شئتم فدعونا نقسم المدارك إلى مراتب:**

أولًا: العـــلم، وتعريف العلم: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا.

ثانيًا: يناقض العلم الجهل، والجهل البسيط هو عدم الإدراك بالكلية.

ثالثًا: الجهل المركب: وهو إدراك الشيء على خلاف ما هو عليه.

رابعًا: الظن: وهو إدراك الشيء مع احتمال ضد مرجوح.

خامسًا: الشـــك: وهو إدراك الشيء على ما هو عليه مع احتمال ضد مساوي.

سادسًا: الوهـــم: وهو إدراك الشيء مع احتمال ضد راجـــح.

۞ هذه التقسيمات عند الأصوليين نزيدها بيانا بالأمثلة، فنقول:

- **العلم**: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا، فإذا قال لك إنسان متى وقعت معركة بدر؟، فقلت: وقعت معركة بدر في السنة الثانية من الهجرة، فهذا علم لأنك أدركت الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا لا تردد فيه.
- لو قال لك قائل، متى وقعت معركة بدر؟ فقلت: لا أدري، فماذا نسمي هذا؟ نسميه: **جهل بسيط**.
- لو قلت: وقعت في السنة الرابعة من الهجرة فما هذا؟ **جهل مركب** لأنك أدركته على خلاف ما هو عليه، وأيهما أشد الجهل البسيط، أم الجهل المركـــب؟ الجهـــل المركب أشـــد من الجهل البسط.

- **أما الظن**: أن تدرك الشيء بغلبة ظن بمعنى أنك تقول: يغلب على ظني أنها وقعت في السنة الثانية من الهجرة، فهذا ظن، فالظن تكون نسبة الصواب فيه أكثر من نسبة الخطأ.
- وإذا تساوى الأمران **فهو شـــك** كأن يكون ٥٠%و٥٠%.

- وإذا غلبت نسبة الخطأ، فقلت يغلب على ظني أنها وقعت في السنة الثالثة **فهذا وهـــــم**.

۞ويقسمون العلم أيضًا إلى قسمين:

القسم الأول: علم ضروري.

القسم الثاني: علم نظـــــري.

فالعلم الضروري: هو الذي يكون إدراك العلم فيه بمقتضى الضرورة. إما ضرورة عقلية أو حسية، فمن الضرورة الحسية أن تعلم أن السماء فوقنا، والأرض تحتنا، هذا علم ضروري أدركناه بالحواس. عقلية أن تعلم أن ١+١=٢، فهذه ضرورة عقلية لأنها تدرك بالتفكير والحساب، فهذا يسمى عند العلماء بالضرورة العقلية، ومن العلم الضروري ما ثبت بالتواتر ، فما جاء في كتاب الله عز وجل فهو ثابت بالتواتر ، لأن كتاب الله عز وجل محفوظ نقل إلينا نقلًا متواترًا لا خلاف فيه، ولا يخرم منه حرف واحد، ومنه الأحاديث المتواترة التي رواها جمع كثير يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة عن مثلهم وأسندوه إلى شيء محسوس، فالأحاديث المتواترة تفيد العلم الضروري القطعي.

وأما العلم النظري فالمراد به: ما يحتاج إلى نظر واستدلال، ولهذا العلوم النظرية يحصل فيها خلاف بين أهل العلم، فتجد مثلًا أن العلماء يختلفون في بعض المسائل، مثلًا في نواقض الوضوء هل لحم الجزور ينقض الوضوء؟، هل مس الذكر ينقض الوضوء؟، فيجري فيها بحث فيكون العلم بأحد الأمرين علمًا نظريًا لا علمًا ضروريًا.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.